

الغضب النبيل

وأنا موشك على الانتهاء من كتابي هذا، إذا بموجة من الغضب تجتاح الشعوب الإسلامية، وإذا بتلك الشعوب تعبر عن غضبها كل حسب الأسلوب الذي اختاره، والذي يتفق مع تفكيره ونفسيته، وقد تفجرت براكين الغضب بسبب رسومات كاريكاتيرية تناولت سيدنا وسيد الإنسانية جمعاء، محمداً ﷺ، نُشِرتْ في صحيفة دنماركية وتتابعُ بقية الصحف الغربية بعد ذلك على النشر، والذي زُده من تأجج نيران الغضب إصرار الدنمارك والدول الأوروبية على هذا النشر، لأن هذا يدخل - في عرفهم - في نطاق حرية الرأي وهناك لا حجر على الحرية بكافة صورها، لذلك رفضوا أن يتنازوا عن الحد الأدنى من التراضي والذي طلبته الشعوب الإسلامية وهو (الاعتذار).

وما حدث على الصعيدين الإسلامي والغربي يعكس أزميتين، أو يجسد مأزقين تعيشه الشعوب الغربية والشعوب الإسلامية على حد سواء.

أما ما تعيشه الشعوب الغربية ومعها أنظمتها فينحصر في التالي :

✍ إنهم لا يفهمون الحرية حق فهمها، لا حرية القول، ولا حرية الفعل، ولا حرية الفكر، أو قل إنهم يفهمونها حق فهمها ولكنهم يقصرونها على أنفسهم دون غيرهم لأنهم ينزئون أنفسهم منزلة، والآخرين دون تلك المنزلة

✍ إنهم لا يقدرين العظمة الإنسانية، فقد أجمعت الإنسانية واجتمعت منذ زمن بعيد على أن العظيم في أسمى معانيه وأرقى درجاته هو الرجل الذي استطاع بما أوتي من نبيل وشرف وإرادة وتصميم وشجاعة وجرأة وتضحية ورأفة ورحمة أن يخرج الإنسانية من الظلمات والظلم والقهر والاستبداد والظغيان إلى النور والعدل

والخير والحق ، ورفع من كرامة الإنسان بغض النظر عن دينه أو موطنه أو لونه والبرهان الصادق والدليل الساطع على تلك العظمة ، أن ملايين من البشر في زمنه وبعده أخذت تهوى بكل حب واقتناع إلى عقيدته وأقواله وتعاليمه ، وقلوبهم قبل عقولهم تذكر اسمه في أحلك اللحظات وأظلم المواقف ، لتستمد منه مدداً ووعواً ، ينير لها تلك اللحظات ويسر لها تلك المواقف ، تلك المواصفات التي لا يجادل فيها منصفٌ لا تنطبق بحقٍ وصدقٍ - وبدون تعصب أو تحيز - إلا على رجلٍ واحدٍ هو محمد - ﷺ - وإسنا الذين نقول ذلك بل مفكر وكاتب من كتاب الغرب وهو (توماس كارلايل) .

يقول " لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذبٌ وأن محمداً خداعٌ ومزورٌ وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون (1) من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذي خلقنا . أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء كذبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً . ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وضلالة كان الأولى بها ألا تخلق .

فوا أسفاه ! ما أسوأ مثل هذا الزعم ! وما أضعف أهله وأحقهم بالثناء والمرحمة ! (وبعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات ألا يصدق شيئاً ألبتة من

١- يبلغ عدد المسلمين فى العالم حسب آخر إحصاء حوالى مليار ونصف مليار تقريباً .

أقوال أولئك السفهاء ! فإنها نتائج جيل كفر، وعصر جحود وإلحاد وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان . ولعل العالم لم يرقط رأيا أكفر من هذا وألم ؟ وهل رأيت قط معشر الإخوان أن رجلاً كاذباً يستطيع أن يوجد ديناً عجباً والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتاً من الطوب فهو إذا لم يكن عليمًا بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه بيت وإنما هو تلُّ من الأنقاض وكثيبٌ من أخلاط المواد . نعم وليس جديرًا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرناً يسكنه مائتا مليون من الأنفس ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن . وإنى لأعلم أنه على المرء أن يسير فى جميع أمور؛ طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته كذب- والله - ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى خيلوه حقا وزير وباطل وإن زينوه حتى أوهموه صدقا ، ومحنة- والله - ومصاب أن ينخدع الناس شعوبًا وأمما بهذه الأضاليل ، وتسود الكذبة وتقود بهاتيك الأباطيل ، وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرج من كفه الأثيمة ويحقيق مصابها بالغير لا به^(١) .

﴿ وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً هذا قط رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائق والصغائر . وما الرسالة التى أداها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول . كلا ما محمد بالكاذب ولا الملقق وإنما هو قطعة من الحياة قد تفتقر عنها قلب الطبيعة فإذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع . ذلك

١- الأبطال - توماس كارلايل - صفحة (٥٨ - ٥٩) .

أمر الله وذلك فضل يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وهذه حقيقة تدمج كل باطل وتدحض القوم الكافرين (١)

﴿ وعجيبه وإيم الله أمية محمد ، نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ، ولم يضره ولم يزره أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك ، ولم يقتبس محمد من نور أى إنسان آخر ولم يعترف من مناهل غيره ، ولم يك فى جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء - أولئك الذين أشبههم بالمصاييح الهادية فى ظلمات الدهور - من كان بين محمد وبينه أدنى صلة . وإنما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ، وما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره " (٢) .

﴿ " وإنى لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت يسكت حيث لا موجب للكلام فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة ، لا يتناول غرضاً فيتركه إلا وقد أثار شبهته وكشف ظلمته وأبان حجته واستثار دفينته وهكذا يكون الكلام وإلا فلا . وقد رأيناه طول حياته رجلاً راسخ المبدأ صارم العزيمة بعيد المهمة كريماً برّاً ، رءوفاً تقياً فاضلاً حراً - رجلاً شديد الجد مخلصاً وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلوا الإيناس ، بل ربما مازح وداعب ، وكان على العموم تضىء وجهه ابتساماً مشرقة من فؤاد صادق ، لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله - هؤلاء لا يستطيعون أن يبتسموا . وكان محمد جميل الوجه وضىء الطلعة حسن القامة زهى اللون له عينان سوناوان

١- المصدر السابق - صفحة (٦٢-٦١) .

٢- المصدر السابق - صفحة (٧٠) .

تتألاً لأن . وإني لأحب في جبينه ذلك العرق الذى ينتفخ ويسوء في حالة غضبه ، وكان هذا العرق خصيصة في بنى هاشم ولكنه كان أبين في محمد وأظهر . نعم ، لقد كان هذا الرجل حاد الطبع نارى المزج ولكنه كان عاد لا صادق النية ، كان ذكى اللب شم الفؤد .

لو ذعيا كأنما بين جنبه به مصاييح كل ليل بهيم

ممتلئاً ناراً ونوراً ، رجلا عظيما بفطرته لم تتفقه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غنى عن ذلك فأدى عمله في الحياة وحده في أعماق الصحراء .

✍ " لقد كانت في فؤد ذلك الرجل الكبير ابن القفار والفلوات ، المتوقد المقلتين العظيم النفس ، المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبراً وحكمة وحجى وأربة ونهى أفكار غير الطمع الدنيوى ، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه وكيف لا وتلك نفس صامته ورجل من الذين لا يمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيروا طبق اعتبارات باطلة ترى محمداً لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل لقد كان منفرداً بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات".

✍ " لقد كان زهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أمور، وأحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار وإنهم يذكرون – ونعم ما يذكرون – أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس والطعام، مجتهد في الله قائم النهار ساهر الليل دائم في نشر دين الله غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان ، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت

رجل عظيم- وريكم- وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحترامًا وإكبارًا وإعظاما ، وما كان يمكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله . لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفة ، وكانوا حماة الأنوف أباة الضيم وعر المقادة صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا ، فذلكم- وايم الله- بطل كبير ، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أدعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من - تضاف بنانه ؟ وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصواجانه لما كان مصيبًا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال " (١) .

✎ "وإنى لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلاً مستقل الرأي لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه ولم يك متكبراً ولكنه لم يكن ذليلاً ضرعاً ، فهو قائم في ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد يخاطب بقوله الحرامبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة وكان يعرف لنفسه قدرها ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران " (٢) .

هذه بعض الأقوال - وليس كل الأقوال - لكاتب ومفكر عربي ، لا يؤمن بمحمد ﷺ ولكنه مقتنع - وكل الشواهد تؤيد ذلك - أنه رجل عظيم ، ولا مرء في ذلك وحق على

١- المصدر السابق - صفحة (٩١-٩٢) .

٢- المصدر السابق - صفحة (٩٢-٩٣) .

الإنسانية للعظيم أن توقره وتحترمه ، وتغض الطرف عنده ، لا لشيء إلا لعظيم دين وأيادي العظيم على الإنسانية ، لأن كل هذا الأمن والسلام والتقدم والرخاء والرفاهية التي تنعم به الإنسانية بفضل هؤلاء العظام وأنه متى واجهت الإنسانية العظماء بالجحود والنكران والتشوية والسخرية والاستهزاء والاستخفاف فإنها تقوض أهم أساس من أسس بقائها .

✍ إنهم ينظرون إلى تلك الملايين من البشر - المسلمين - أنهم لا حول لهم ولا قوة ، لا وزن لهم ولا ثقل في عالم اليوم ، ولا يقدمون شيئاً للعالم المتحضر بل هم عالة وعبء عليهم .

✍ إن العقيدة التي يدين بها الملايين من المسلمين ، بدأت تمثل لهم عقبة في إعادة تشكيل العالم ، وشعوبه حسبما يريدون ، واكتشفوا في وقت متأخر أن تغيير تلك العقيدة لا ينفع معها ترغيب ولا ترهيب ، وأنها راسخة في النفوس كرسوخ الجبال بل أشد وأقوى .

✍ أباحوا لأنفسهم العبث بالمفاهيم والمسميات لتتوافق ومصالحهم ، وهذا أخطر ما يكون ؛ فالتمسك بالهوية نوعٌ من التأخر والجمود ، والتمسك بالعقيدة نوع من الرجعية والتخلف ، والتضحية في سبيل مبدأ سام نوع من الإرهاب ، وهذا من شأنه أن يحطم جسور التفاهم التي قد تبني بينهم وبين الشعوب الإسلامية .

✍ ما زال الفكر الاستعماري يعيش في زوايا عقولهم ، وبالرغم من أن الإنسانية تخلصت من هذه النزعة البغيضة ، إلا أن الأحداث مؤخراً أظهرت أن تلك الشعوب على استعداد أن توافق أنظمتها وتؤيدها أن تحتل وتغزى بلدًا آخر تحت أى مسمى من المسميات ، والشعب المحتل لا يخرج عن أن يكون شعباً من

الشعوب الإسلامية ، طالما أن هذا الاحتلال سيصب في مصلحتهم وبحقوق مزيداً من الرخاء والرفاهية .

﴿ نصّبوا من أنفسهم أو صيأ على الشعوب الإسلامية ، فى أعمالهم وفكرهم وتعليمهم وصناعاتهم وتسليحهم .. إلخ ... والويل كل الويل لمن يفكر أن يخرج عن تلك الدائرة الحديدية ، التى رسموها وأجبروا تلك الشعوب أن يعيشوا داخلها .

أما ما تعيشه الشعوب الإسلامية ومعها أنظمتها فينحصر فى التالى :

﴿ إن كل الشعوب الإسلامية تخلصت من الاستعمار الذى كان يجثم على أراضيها منذ زمن بعيد ، إلا أن البعض منها مازل تابِعاً بشكل أو بآخر لدولة أجنبية ويدور فى فلكها ، وهى قانعة بتلك التبعية .

﴿ إن تلك الشعوب الإسلامية لم تحقق قدراً من التقدم والتطور والتنمية ما يمكنها أن يكون لها مكان وصوت مسموع فى عالم اليوم ، مع أن شعوباً أخرى أقل فى الإمكانيات قد حققت قدراً كبيراً من التطور . وأصبح لها مكانة متميزة ، وحينما تقارن الشعوب الإسلامية ... تفقد الثقة فى نفسها ، ومن يفقد الثقة فى نفسه يعجز عن الحركة .

﴿ هناك أزمة ثقة بين الشعوب الإسلامية وأنظمتها ، فليس هناك تطابق بين الاثنين ، فالشعوب تريد شيئاً والأنظمة تريد أشياء أخرى ، لاختلاف توجهات كل منهما .

﴿ تلك الأنظمة تجد نفسها واقعة بين المطرقة والسندان ، فهناك التزامات أمام شعوبها من المفروض أن تنفذها ، وهناك أيضاً معاهدات واتفاقيات تربطها

بالعالم الغربى . وتحاول تلك الأنظمة أن تحقق - ولو الحد الأدنى من التوافق بين الاثنين ، وهى بذلك تحاول فعل المستحيل وتبدد الكثير من الجهد والوقت .
✍ إن تلك الشعوب تتعرض لمحو ذاكرتها ، وطمس تاريخها ، والعبث بالثوابت التى تربطها بالأرض والهوية ، لجعلها تفقد اتزانها والإحساس بذاتها ليسهل بعد ذلك تشكيلها .

✍ إن تلك الشعوب - أو بعضها - تعتمد فى جزء كبير من مرافق حياتها على الغرب فى المأكل والمشرب والملبس والعلاج ، وهذا الاعتماد غير موقوت بزمان محدد ، ولا تجد غضاضة فى ذلك . وقد يرضى هذا فيها نزعة الكسل والترخى والميل إلى الراحة والدعة .

✍ هناك قيم ومفاهيم ومبادئ مبتورة أو مغيبة أو مطموسة إما عن جهل أو غفلة أو تعمد ، وتلك القيم والمفاهيم والمبادئ من أصول الدين مثل الحرية والشورى والعلم والعمل . ومواصفات من يلى الأمر وحرمة دم المسلم مهما كان انتماءً؛ ومهما كان اختلافه مع الآخرين وواجبات الشعوب الإسلامية نحو بعضها البعض.

✍ الوعى الفكرى والثقافى لدى أغلب الشعوب الإسلامية فى حده الأدنى لذلك من السهل التأثير فيها وتوجيهها والسيطرة عليها فكريا ، مع أن القيم المهمة فى الدين واضحة مثل (اقرأ - اسأل - ناقش - اعتبر - فكر - تفكر)

إذن هناك أزمة ، وهنا أزمة ، وقاموا بتصديرها إلينا ، كأى شىء يصدر عنه لنا ، ونحن استوردنا الأزمة ، كأى شىء نستورده منهم ، وحدث التصادم ، ونتج شرر وأشعل نيران الغضب .

العمرية في ← رجاى عمر بن الخطاب

وكان هناك - فى الغرب - تعجب واستنكار ، فقد تعودوا على أن كل شىء مستباح لهم ، لا سيما إذا كان ينتمى للشعوب الإسلامية ، الأرض ، السيادة والفكر والحرية والكرامة والدم وهذا حادث منذ زمن ، ولم تغضب الشعوب الإسلامية . فلم تفجرت براكين الغضب !! هنا - وهنا بالذات - .

بالنسبة للشعوب الإسلامية فقد تنازوا عن كثير من مقدراتهم وفرطوا فى قضايا مصيرية ، وهانوا على أنفسهم ، وهانوا على الآخرين ... وكان الدين هو المعقل الأخير - ولا معقل بعده - الذى لا يجوز بأى حال من الأحوال السماح بالمساس به فهو الشىء الوحيد فى حياتهم النقى الطاهر السامى المقدس ، الذى يستمدون منه الإحساس بإنسانيتهم والشعور بآدميتهم ، يجدون فيه العزء والسلوى ، من هذا الانسحاق والانهمز والترأجع والتقهقر فى العالم ومن العالم ، إنه مبدد للقهر والجبروت والطغيان الذى يجدونه فى حياتهم ، إنه ينير تلك الأنفاق المظلمة ويحطم حدودها لتزاد حياتهم اتساعاً ورحابة ووجودهم غنى وثرأء ، ويجعل لوجودهم هدفاً ومعنى ، يرفعون رؤوسهم إلى السماء مبتسمة شفاههم ، نضرة وجوهم ، مشرقة نفوسهم ، مرتعشة أرائهم سعادة وحبوراً ، يسجدون للخالق ، يسبحون بحمده وتردد خلاياهم صلواتهم وسلامهم على نبي الخير والعدل والسلام محمد ﷺ

حينما يمس أحد هذا المقدس ... لا عجب ، بل العجب كل العجب ألا تتفجر براكين الغضب .

ولكن ما علاقة هذا بالكتاب الذي بين أيدينا ؟

بالأمس اغتيل عمر ؟ قُتِلَ بيد أجنبية غادرة حاقدة مسمومة ، وضعت حدًا للشخص ولكنها لم تستطع أن تقتل الشخصية أنهت وجود إنسان في زمان ومكان، ولم تستطع أن تمحو أو تبدد خلوه ذاكرة في كل الأزمنة والأمكنة .

واليوم محاولة لتشويه صورة محمد - ﷺ - بقلم غادر حاقد ومداد مسموم لا يعرفون أن صورته - ﷺ - مرسومة بحرءف من نور، داخل إطار من الطهر والنقاء تشع نورًا وسلاما وهدى في قلوب الملايين ، وإنهم لعاجزون أن يحوا تلك الصورة من قلب واحد من تلك الملايين .

أبو لؤيَّة الملعون استبدل بالخنجر قلمًا ، ظنًا منه أن ما عجز عن تحقيقه بالخنجر قد يفلح في تنفيذه بالقلم اليوم !! .

وهناك صلة أوثق بين هذا الموضوع وموضوع الكتاب . أو صاحب سيرة هذا الكتاب الغضب النبيل الذي كان يمتلئ به قلب عمر كلما نال شخص رسول الله شيءٌ ولو هينًا .
صلاة وسلامًا عليك يا محمد ... يا رسول السلام والعدل والخير . وسلامًا عليك يا عمر... يا من فرق الله بك بين الحق والباطل .